١٠ محمد شبل الأسود
اسم يدل على صفات صاحبه

فى بيت وارف بالنعمة والنعيم، مزهو بالسيادة والشرف، مكرم بالعزة والنسب.. ولأب له فى قريش الصدارة والزعامة، ولأم متواضعة، كل ما حققته من ألقاب الحياة أنها من السرارى أو الجوارى، نشأ وترعرع هذا الفتى ليكون من بَعْدُ أَحَدَ الصحابه الأجِلاَّء.

هذا الرجل الصالح تبدو مراحل حياته فى صورة قد تعجز عن تكوينها القصص والروايات التى ينسجها المبدعون من وحى خيالاتهم، فيرتاب فى مصداقيتها كل من يَقْرَؤُها أو يستمع إليها.. ولا يجد فكاكاً سوى القول بأنها خيالات فنان.. فمن ذا الذى يصدق أن هذا الرجل يولد هناك بالحبشة، لينتقل إلى المدينة المنورة.. ليجوب قلب الجزيرة العربية حتى يستقر به المقام فى واحدة من مدن مصر هى المنوفية ليموت فيها شهيداً ضمن عشرات من الشهداء شرفت بهم هذه البقعة من أرض مصر.. ذلكم هو الصحابى الجليل محمد شبل الأسود.

ومحمد شبل الأسود هى الشهرة أو التسمية التى بها اشتهر وعُرِفَ محمد بن الفضل بن العباس بنى عبد المطلب لبأسه وقوته وشجاعته وإقدامه على الجهاد فى سبيل الله.. ويعلو نسبه ومرتبته، حيث إنه من أشراف قريش أعظم قبائل العرب فى العالم القديم.. وهى سمات وملامح لاتدانيها إلا صفات الأشبال والأسود.

وشبل الأسود رضى الله عنه كان يتسم بصفات ومقومات كثيرة تجعله جديراً باهتمام وتقدير صحابة رسول الله برغم صغر سنه، فهو إلى جانب كونه من آل البيت رضوان الله عليهم فهو ابن الفضل بن العباس، ابن عم النبى ﷺ، وعمه

العالم الفقيه عبد الله بن العباس راوى الحديث ومفسره الذى ترجع إليه كل المصادر الموثوق بها.. وهو ـ إلى جانب ذلك ـ عُرِفَ عنه قوة فى الإيمان، وسماحة فى الخلق، وعلو فى الهمة منذ أن أسلم.. فكان بحق من فتية الإسلام وشبابه ممن نِيطَ بهم رفع راية الإسلام واستمراره بعد وفاة النبى ﷺ، والدفاع عَمَّا بشر به هذا الدين من قيم ومبادئ، تعاليم وعقائد.. فلم يرتد أو تلعب بعقله الشكوك والظنون.. وإنما استمر قوى الإيمان ثابت العقيدة.

وإذا كان شبل الأسود لم يشرف بالجهاد فى سبيل الله مع الرسول الكريم وصحابته الأجلاء ـ لحداثة عمره ـ فقد شرف بهذا الجهاد حتى استشهد ودفن جثمانه الطاهر بضريح يظله مسجده المعروف بمسجد سيدى شبل بالمنوفية.. إحدى مدن أقاليم مصر التى تعتز ولاشك بأن ثراها يضم رفات هذا الصحابى الجليل.

لكن كيف جاء إلى هذا المكان الذى يبعد مئات الأميال ليدفن فيه؟ وكيف عاش فيه إلى أن استشهد؟ ولماذا استشهد؟ وكيف نُعت بالأسود؟ إن لهذا قصة أو قصصاً تتلوها علينا المصادر القديمة والحديثة معاً.. والتى تؤكد بصورة أو بأخرى علو شأن هذا الرجل فى تاريخنا الإسلامى.

تبدأ هذه القصة منذ وُلد بالحبشة للفضل بن العباس ولد أسماه محمداً فى السنة التاسعة للهجرة، حينما كان الفضل يخرج بتجارة كبيرة للعرب إلى بلاد الحبشة، ولما انتهى الفضل من بيع تجارته.. حدث بينه وبين حاكم الحبشة خلاف على الضريبة المقدرة عليها، مما اقتضاه البقاء فترة لفض هذا الخلاف. ولما تم الصلح بين الطرفين، وَهَبَ حاكم الحبشة جارية حبشية بكراً من سراريه، اسمها ميمونة، هدية للفضل.. نظير صِدْقِه وأمانته وحُسْن تعامله.

وقبل الفضل الهدية، وعزم على الزواج منها، وعند عقده عليها تصادف أن حضر جماعة من الصحابة الأجلاء من المدينة المنورة يستطلعون تغيب الفضل بن العباس ومعه تجارة العرب.. فعقد له عليها فى السنة الثامنة المقداد بن الأسود، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وفى السنة التاسعة ولدت ميمونة للفَضْل ولده محمد شبل الأسود.. ولعله نُعت بالأسود نسبة إلى سواد لونه الذى ورثه عن أمه الحبشية الأصل.. كما أضيف شبل إلى اسمه لاشتهاره بالشجاعة والإقدام.

وأما عن مجيئه إلى مصر فيذكر البعض أنه حضر مصر على رأس جيش لمحاربة بعض المتمردين على الإسلام، وأنه مات شهيداً ضمن من استشهد بالمنوفية فى المنطقة التى عرفت باسم قرية الشهداء، نسبة إلى استشهاد عدد من المسلمين فى تلك المعركة التى تشير إليها الكثير من المصادر التاريخية بأعتزاز وتقدير.

لكن البعض يقول إنه حضر إلى مصر فى وقت الفتنة التى أعقبت وفاة عثمان بن عفان رضى الله عنه، وأنه قُتل على أيدى الموالين لمعاوية بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص فى مصر لنصرته لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه.. الذَيْن طاردا كل من كان يتشيع للإمام علىّ وآل البيت رضوان الله عليهم فى مصر وغيرها.

ويقول البعض الثالث، إن ما تؤيده الدراسات الحديثة، وفى مقدمتها دراسات الدكتورة سعاد ماهر بكتابها مساجد مصر، أنه حضر مصر واستشهد بها فى المعارك التى حدثت بمنطقة المنوفية بين أنصار عبد الله بن الزبير، وبين جنود مروان بن الحكم، واستشهد فى عام ٦٥٠م ودفن فى مقابر الشهداء، وهو ما تؤكده جميع المراجع التاريخية.

ومهما يكن الخلاف بين المؤرخين حول سبب حضوره مصر وسنة حدوث ذلك، فإنَّ الجميع يؤكدون أنه استُشهد ودُفن بمصر فى المكان الذى أُنْشِئَ عليه مسجده الذى يضم ضريحه المعروف باسم سيدى «شبل» بالمنوفية. فسوف تبقى سيرته على مر الزمن كواحدة من السير التى تقترب من الأساطير، مع أنها ليست بأساطير، وإن بدت من فرط إعجازها كالأساطير.

إنها ليست كذلك، فهى حقائق تشكل كل ماكان لرجال الصدر الأول فى الإسلام من شخصية وحياة، من أعمال ومواقف، من قيم ومبادئ، وأنها لتسمو وتتألق لا بقدر ما يريد لها المؤرخون والواصفون.. بل بقدر ما أراد لها أصحابها وذووها، وبقدرما بذلوا فى سبيل بناء دولة الإسلام من جهد وعمل.

محمد شبل الأسود جاء هكذا الحياة كغيره من رجالات الإسلام الأبرار فى أوانهم المرتقب ـ كما قلنا من قبل ـ ويومهم الموعود فحين كانت هذه الحياة تهيب

بمن يجدد لقيمها الروحية وشبابها وصوابها جاء هؤلاء الرجال ليؤمنوا برسالة الإسلام ونبيه الكريم. وحين كانت هذه الحياة تهيب بمن يضع عن البشرية أغلالها، ويحرر وجودها ومصيرها جاء هذا الرجل وغيره وكأنهم الثوار والمحررون. وحين كانت الحياة تهيب بمن يستشرف للحضارة الإنسانية مطالع جديدة ورشيدة جاء هؤلاء الرجال رواداً ومعلمين.

ولهذا ولغيره لم يكن غريباً أن يولد شبل الأسود فى الحبشة، وأن يكتسب سواد لونها، وأن ينتقل إلى المدينة المنورة حيث يكتسب إلى مصر مجاهداً، حيث ينال شرف الجهاد والشهادة. إنه واحد من الذين خَصَهُم القدر بأن يكونوا بُناة خير أُمَّة أُخرجت للناس.

ويرحل عن دنيانا هذا الصحابى الجليل ليترك لنا الكثير من القيم الروحية، والسيرة الطيبة التى تجعل منه بطلا على مر العصور واختلاف الأماكن فى تاريخ الدولة الإسلامية.

* * *